الفصل السابع

الحياة الاجتماعية

- **أولًا: عناصر المجتمع أيام الرشيد:**

1 – سياسة هـارون الرشيد مع العلويين.

2 – سياسة هـارون الرشيد مع الفرس.

3 – البرامكة ونكبتهم

- **ثانيًا: طبقات المجتمع أيام الرشيد:**

1 – الطبقة العليا: وتشمل الأسرة الحاكمة والأمراء وولاة العهد.

2 – الطبقة الوسطى: وتشمل كبار رجال الدولة والتجار والعلماء والقضاة.

3 – الطبقة السفلى: وهي طبقة العامة والغوغاء.

- **ثالثًا: العادات والتقاليد:**

1 – المأكل.

2 – الملبس.

3 – الأعياد.

4 – الألعاب الرياضية.

- **رابعًا: المدنية في المجتمع العباسي.**

obeikandl.com

”بغداد الرشيد وسط الدنيا وسرة الأرض والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة، وكبرًا، وعمارة، وكثرة مياه، وصحة، وهواء“.

اليعقوبي: البلدان (ص11)

obeikandl.com

أولًا: عناصر المجتمع أيام الرشيد

يقصد بعناصر المجتمع، أي عناصر السكان الذين يكوِّنون الحياة في المجتمع العباسي، ويتفاعلون فيما بينهم، وتطور الحياة بهذا التفاعل من الناحية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وقد كان المجتمع العباسي إلى عهد الرشيد يشمل عنصرين أساسين، هـما: العرب والفرس، ويمكن أن نضيف إليهما الأتراك، إلا أن ظهوره لم يبرز إلا في أيام المعتصم. بل كان العرب أنفسهم ينقسمون إلى أقسام لكل منهم شيعة وأنصار ومذاهب، فكان منهم العلويون والعباسيون وعامة الناس.

في هـذه السطور لن نهتم بتفاعلات هـذه العناصر في المجتمع العباسي، بقدر ما نهتم بالسياسة التي اتبعتها الحكومة العباسية في تعاملها مع هـذه العناصر. وسوف نقتصر على عنصرين أساسيين، وهما: سياسة الرشيد في التعامل مع العلويين وكذلك الفرس.

1 - سياسة هـارون الرشيد مع العلويين

العلويون حتى هـارون الرشيد

العلويون هـم أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كان لهم حلم الوصول إلى الخلافة منذ أن قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء، ومنذ ذلك الحين وهم يتحينون الفرصة ضد بني أمية لعودة الإمامة والخلافة، حتى ظهرت الدعوة إلى "الرضا من آل محمد" على يد العباسيين أبناء عمومتهم، وقد نجحت حركة العباسيين في نيل الخلافة دون غيرهم، مما أورث الحسد والحقد في قلوب العلويين على أبناء عمومتهم العباسيين، وقد كان العباسيون يعلمون ذلك جيدًا ويراقبونه، ومع ذلك كانوا يتوددون إليهم بالهدايا والهبات وخاصة في

عهد أبي العباس السفاح.

وكان أول صدع تصدعت به الخلافة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة، حيث كان يرى أنه أحق بالخلافة وجدير بها، وقد ظهرت دعوة النفس الزكية وأخوه إبراهيم واشتدت في عهد المنصور، فقد امتنع النفس الزكية عن مبايعة السفاح وأبي جعفر المنصور، فرأى المنصور أن بقاء النفس الزكية وأخوه خطرًا يهدد الدولة، وأنه لن تقوم لخلافته قائمة إلا إذا ظفر بمحمد وإبراهيم.

وقد كان لدعوة النفس الزكية أثرًا بالغًا وخطورة شديدة، ولولا شجاعة المنصور وحزمه لزلزلت جوانب الخلافة العباسية في مهدها، وقد جد المنصور في طلب محمد وإبراهيم حتى قتلا في 145 هـ[1]. وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم، وضيقوا عليهم، وشددوا المراقبة على المعروفين منهم، وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم، فتباعد الأمر واشتدت الجفوة.

واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم، وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى، كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي سنة 169هـ، فحيل بينه وبين مراده، وقتل بفخ بالقرب من مكة[2]، وكانت هذه الوقعة من الشدة بحيث قيل: "لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ". وأفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى، فاتجه الأول غربًا مارًا بمصر ومخترقًا شمال إفريقية حتى أتى المغرب الأقصى، فحدب عليه من به من الأمازيغ وبايعوه بالخلافة، وأسس هناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من المغرب، واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم[3].

(1) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص421 – 423. أبو الفرج الأصبهاني: مقاتل الطالبيين، ص229 – 244.

(2) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص445. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 192 – 203.

(3) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة العباسية، 568 – 569. بتصرف.

العلويون في عهد الرشيد

اختلفت سياسة الرشيد - في أول عهده - مع العلويين، فقد رأى أن يرفق بهم، وأن يزيل أثر سياسة الهادي العنيفة، فعند مجيئه للحكم بذل الأمان للطالبيين[1]، ولعل بادرة هـذا الأمان أن استوزر علي بن يقطين، ورفع الحِجر عمن كان منهم ببغداد سنة 171هـ، ويروي الفضل بن الربيع أن الرشيد كانت له ميول علوية، وإن صح ذلك فإن ميوله لم تكن تتجاوز حدود العاطفة[2]. على أن الصفا هـذا لم يطل، وحدثت حوادث كثيرة جعلت الرشيد يعدل عن هـذه السياسة إلى سياسة الشدة والمعاقبة، منها:

أ - خروج يحيى بن عبد الله في الديلم

خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الطالبي سنة 176هـ، وكان يحيى بن عبد الله قد خاف مما جرى على أخويه: النّفس الزكيّة وإبراهيم. فمضى إلى الدّيلم[3]، فاعتقدوا فيه استحقاق الإمامة وبايعوه واجتمع إليه الناس من الأمصار وقويت شوكته. فاغتمّ الرشيد لذلك، وندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل، ومعه صناديد القواد، وولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وغيرها، وحملت معه الأموال.

وقد استطاع الفضل بن يحيى أن يخمد فتنة يحيى بن عبد الله بطريق غير طريق الحرب، حيث أخذ يحذره ويخوفه حينًا ويمنّيه ويرغبه حينًا آخر، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه، على أن يكتب له الرشيد أمانًا بخطّه على نسخة يبعث بها إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد، فسرَّه وعظم موقعه، وكتب يحيى أمانًا وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هـاشم ومشايخهم، ثم قدم يحيى مع الفضل، فقابله الرشيد بالحفاوة والإكرام، ولكن الرشيد لم يلبث أن حبس يحيى

(1) المقدسي: البدء والتاريخ، 6/ 101.
(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 110.
(3) الديلم: أعاجم منطقة الريِّ، جنوب بحر قزوين ويغلب عليهم التشيع.

في داره، واستفتى الرشيد الفقهاء في نقض اليمين، فمنهم من أفتى بصحته فحاجّه، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله. على أن أمورًا دعت الرشيد إلى نقض هـذا الأمان والتخلص من يحيى، وذلك لسعاية عبد الله بن مصعب الزبيري بيحيى بن عبد الله عند الرشيد، واتهامه بأنه أخذ يدعو لنفسه بعد إعطائه الأمان. وما هـي إلا أيام حتى مات يحيى في محبسه[1].

وقد ذكر ابن كثير أن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله، وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال: إنما حبسه بعض يوم. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش يحيى بعد ذلك كله شهرًا واحدًا ، ثم مات[2].

ب - إدريس بن عبد الله في بلاد المغرب

أمَّا إدريس بن عبد الله فقد كُتب له النجاة من موقعة الفخ سنة 169هـ مع أخيه يحيى، وفرَّ إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب سنة 172هـ، والتف حوله البربر واستطاع أن يقيم دولة الأدارسة، منفصلًا بذلك عن دولة بني العباس، واستمر في حكمه حتى سنة 177هـ، ولما تيقَّن الرشيد أنه لا قبل له بملاحقة إدريس بن عبد الله بالسيف، تركه وشأنه[3]، فلما تعاظم خطر الأدارسة على الخلافة اضطر الرشيد أن يزرع بإفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان، كما يفعل من رأى حريقًا بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت[4].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 242 - 251. أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، 1/ 390 - 404. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 193 - 195. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 117.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 582،

(3) انظر مناقشتنا لمسألة مقتل إدريس مسمومًا، ودفع الشبهة عن هارون الرشيد، في الباب الثاني - الفصل الرابع الخاص بسياسة هارون الرشيد مع بلاد المغرب والأندلس، ص218.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 198 - 199. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص 569.

جـ - مع الإمام موسى الكاظم

نتيجة لهذه الأحداث المتعاقبة من قبل العلويين وخروجهم المتكرر على أبناء عمومتهم، كثُر الوشاة والحاسدون، الذين سعوا إلى وشاية الرشيد بهم وتأليب قلبه عليهم، حتى أُخذت الشبهة بالظُّنَّة، ولعل موقف الرشيد من الإمام موسى الكاظم رحمه الله[1] أبرز مثال على هـذه الحالة، فقد جاء إلى مسامع الرشيد أن موسى الكاظم يدعو لنفسه وأن الناس يعتقدون بإمامته، فلما حج الرشيد سنة 179هـ أتى قبر النبي ﷺ زائرًا له وحوله قريش ورؤساء القبائل، ومعه موسى بن جعفر الكاظم، فلما انتهى إلى القبر، قال: "السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عمي"، افتخارًا على من حوله، فدنا موسى بن جعفر، فقال: "السلام عليك يا أبتِ". فتغيَّر وجه هـارون، وقال: "هذا الفخر يا أبا الحسن حقًا". فلما رأى الرشيد مدى احتفاء الناس بموسى الكاظم أخذه معه إلى بغداد وحبسه، وكان الموكل به مدة حبسه السندي بن شاهك.

وقد روي أن موسى الكاظم بعث برسالة إلى هـارون الرشيد من محبسه، كانت: "إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعًا إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون".

وذكر المسعودي في مروج الذهب أن الرشيد أرسل إلى عبد الله بن مالك الخزاعي صاحب شرطته، ثم قال: "يا عبد الله، أتدري لمَّا طلبتك في هـذا الوقت"، قلت: "لا والله يا أمير المؤمنين"، قال: "إني رأيت الساعة في منامي كأن حبشيًا قد أتاني ومعه حربة، فقال: إن خليت عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرتك بهذه الحربة، فاذهب فخلِّ عنه، قال: فقلت: "يا أمير المؤمنين، أطلق موسى بن جعفر ثلاثًا"، قال: "نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر، وأعطه ثلاثين ألف درهم، وقل له: إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحب، وإن أحببت المضي

(1) الإمام موسى الكاظم (129هـ - 183هـ)، هو الإمام السابع عند الشيعة الاثنا عشرية.

إلى المدينة فالإذن في ذلك لك"، ثم ذهب فأطلق سراحه.

وقد اختلف في وفاة الكاظم رحمه الله، فقيل: إنه توفي مسمومًا في عهد الرشيد، وقيل مات في الحبس، فعن عبد السلام بن السندي، قال: "كان موسى عندنا محبوسًا، فلما مات، بعثنا إلى جماعة من العدول من الكرخ، فأدخلناهم عليه، فأشهدناهم على موته". وما نرجحه أنه مات بعد أن أطلقه الرشيد من محبسه، فقد كان حبسه احترازيًا ثم أطلقه الرشيد، وأعطاه ثلاثين ألف درهمٍ، وكانت وفاة موسى الكاظم في رجب، سنة 183هـ[1].

تلك كانت أهم ملامح سياسة هـارون الرشيد تجاه أبناء عمومته من العلويين، والتي نرى أنها كانت امتدادًا لحالة من الترقب والريبة التي انتابت الخلفاء العباسيين الأوائل تجاه العلويين، ولذلك تنوعت ردود فعل الرشيد تجاه هـذه التحركات، فتارة يرخو، وتارة يقسو، وتارة يلين، وتارة يشتد، وتارة يقتصر تعامله على الحبس، وتارة يمتد تعامله إلى الضرب والتعذيب حتى الموت. وهي بلا شك أحوال تؤخذ عليه، وهو الذي عُرف بلين القلب وقرب الدمعة والخوف من الله. إلا أننا في النهاية نلتمس له العذر بعض الشيء، فالرشيد كان ينظر إلى مصلحة الدولة، وأن اللين تجاه هـذه التحركات المريبة من العلويين قد تعصف باستقرار البلاد كلها.

ولم تكن سياسة الرشيد تلك نابعة عن بغض للعلويين وآل البيت، وقد نفى الرشيد نفسه هـذه التهمة عنه، فقد أخرج الصولي عن إسحاق الهاشمي قال: كنا عند الرشيد، فقال: "بلغني أن العامة يظنون فِيّ بغض علي بن أبي طالب، والله ما أحب أحدًا حبي له، ولكن هـؤلاء أشد الناس بغضًا لنا، وطعنًا علينا، وسعيًا في فساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم، ومساهمتنا إياهم ما حويناه، حتى إنهم لأميل إلى

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (6939)، 15/ 18 – 20. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 88. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 5/ 309 – 310. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 6/ 273 – 274.

بني أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل، والسابقون إلى الفضل، ولقد حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه عن ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول في الحسن والحسين: "من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني"، وسمعه يقول: "فاطمة سيدة نساء العالمين، غير مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم"[1]. وذكر أبو هلال العسكري والقلقشندي أن الرشيد هو أول من زاد في الكتب بعد التحميد "وأسأله أَن يُصَلِّي على مُحَمَّد وَآله"، قال أبو هلال العسكري: "وكان ذلك من أفضل مناقبه"[2].

2 – سياسة هارون الرشيد مع الفرس

لعل السياسة التي انتهجها خلفاء بني أمية من تمييز العنصر العربي على العناصر الأخرى داخل المجتمعات الإسلامية، كان لها من العواقب الوخيمة والنتائج العظيمة أدت في النهاية إلى تذمُّر هذه العناصر وترحيبها بأي ثغرة تخلصهم من هذه المعاملة التي شعروا من خلالها بالنقص، وهكذا بدأت الخلافة الأموية في التصدع إذ علت النعرات القبلية وسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الشعوبية في بلاد فارس وخراسان خاصة، حتى كان ظهور الدعوة العباسية، ولم يكن مستغربًا أن تكون خراسان الفارسية هي المحضن الأول لتلك الدولة والسيف البتار الذي مهد لها طريق الخلافة. ومن هنا كان انتصار الدعوة العباسية إيذانًا بظهور عناصر أخرى غير العنصر العربي، ولا سيما العنصر الفارسي الذي اعتمد عليه العباسيون في تأسيس دولتهم.

فقد اعتبر الفرس انتصار الدعوة العباسية فوزًا لهم على العرب، وكان من الطبيعي أن يعتمد العباسيون على الفرس في تصريف شئون دولتهم، اعترافًا منهم بفضلهم عليهم، وأن يسلموا إليهم أزِمَّة أمورهم؛ لأنهم يدينون لهم بالخلافة، فيقربونهم إليهم ويصطنعونهم في خدمتهم، ولذلك السبب اصطبغت الدولة

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 216.

(2) أبو هلال العسكري: الأوائل، ص263 – 264. القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، 3/ 347.

العباسية في عصرها الأول بالصبغة الفارسية[1].

وقد كان من الطبيعي تجاه هـذه السياسة أن تظهر أسماء فارسية وأسر - ترجع إلى أصول فارسية - علا شأنهم في بلاط الخلفاء العباسيين، كان منهم: أبو مسلم الخراساني والبرامكة والفضل بن سهل، والغريب أن هـذه الأسماء جميعها تعرضت لنكبات مؤلمة كانت فيها نهايتهم، فأمَّا الأول فقتله أبو جعفر المنصور، وأمَّا البرامكة فنكبهم الرشيد، وأمَّا الفضل بن سهل فكان مصيره القتل في عهد المأمون، وكأنَّ هـذه النكبات كانت تعبيرًا عن تخوف واضح وترقب ملحوظ من الخلفاء العباسيين لحالة النفوذ التي وصل إليه الفرس من حين لآخر.

ولعل العنصر الفارسي لم يشهد نفوذًا واضحًا وتدخلًا سافرًا في شئون الدولة وتصريف أحوالها كنفوذ البرامكة في عهد الرشيد، والتي كانت حكاية ما زال التاريخ يتحدث عنها ولا يجد لظهورها أو لنكبتها سببًا واضحًا. وهو ما سنحاول بيانه في السطور التالية.

البرامكة ونكبتهم

البرامكة أسرة ذات جاه وسلطان من الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ولعل شهرة البرامكة كانت قرينة بشهرة من أغدق عليهم بنعمه ومكَّنهم مما كانوا فيه من قوة السلطان والمال، أعني (هـارون الرشيد). وأما عن نكبة البرامكة فكانت سبيلًا لكثير من المؤرخين والمستشرقين، فاختلقت الكثير من الروايات المكذوبة للنيل من الرشيد حتى وصلوا إلى الطعن في عرضه وشرفه.

نسب البرامكة

يرجع أصل البرامكة إلى برمك، وهو رجل مجوسي من مدينة بلخ قاعدة طبرستان عند نهر جيحون، حيث كان يوجد معبد النوبهار للمجوس الزرادشت- وهم عبدة النار، وقد اشتهر البرامكة بأنهم سدنة هـذا المعبد. وذكر المسعودي أن كلمة برمك ليس اسمًا لجد البرامكة، وإنما لقب يطلق على كل من يلي سدنة هـذا المعبد[2].

(1) السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، 3/ 125.
(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2/ 185.

خالد بن برمك

ولما بلغت الدعوة العباسية خراسان تحمَّس لها خالد بن برمك وهو جد البرامكة كلهم، وصار من أكبر دعاة الدعوة العباسية، ولما عقدت البيعة لأبي العباس السفاح جاء خالد بن برمك ليبايعه فأعجب من فصاحته وأقره على ما كان يتقلد من الغنائم، وجعل له بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند وكثر فيه حامده وحسن أثره. وكان سبيل ما يثبت من الدواوين يثبت في صحف، فكان خالد أول من جعله في دفاتر[1]. وبعد وفاة أبي سلمة الخلال توثقت العلاقة أكثر بين السفاح وخالد بن برمك إذ جعله وزيرًا له، وفي تلك الأيام نبغت الدولة البرمكيّة وامتدت إلى أن انقضت في أيام الرشيد[2].

وكان خالد بن برمك رجل دولة، قال فيه المسعودي: "لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروه وبعد هـمته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه"[3].

يحيى بن خالد البرمكي

ولما تولى المنصور الخلافة أقرّ خالد بن برمك على وزارته، وولَّاه فارس ثم الموصل حتى وفاته سنة 166هـ في أوائل عهد المهدي. وقد كان لخالد بن برمك ابنًا اسمه يحيى، وكان المنصور معجبًا بفطنته وذكائه، وكان يقول: "ولد الناس ابنًا، وولد خالد أبًا"، وقد اختار المنصور يحيى بن خالد لولاية أذربيجان سنة 158هـ[4].

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 59.
(2) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 135.
(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 304.
(4) الطبري: تاريخ الرسول والملوك، 8/ 56.

أما في عهد المهدي فقد عظمت منزلة يحيى وأبيه، فقد اختار المهدي يحيى بن خالد سنة 162هـ كاتبًا ووزيرًا لابنه هـارون، وكان أمر هـارون كله إليه، وكان مع هـارون في حله وترحاله، فذهب معه سنة 163هـ في غزوة الصائفة، ولما ولي المهدي ابنه هـارون المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية سنة 164هـ جعل ذلك ليحيى بن خالد البرمكي، وظل يحيى كذلك حتى ولاية الهادي الذي أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، لكن يحيى حرَّضه على التمسك بحقه، والتهرب من تلبية طلب الهادي، فحبسه الهادي، ولولا وفاة الهادي المفاجئ لذهب يحيى بن خالد ضحية إخلاصه للرشيد.

وكان ليحيى أربعة أولاد: الفضل وجعفر ومحمد وموسى، برزوا جميعًا في عهد الرشيد، وصاروا موضع ثقته، فبرهن الفضل بن يحيى عن حسن سياسة، عندما ولاه بلاد الديلم إلى أن ولاه خراسان وثغورها سنة 178هـ، وغزا ما وراء النهر. وأما جعفر بن يحيى فقد اشتهرت بفصاحته وبلاغته ولباقته حتى نال إعجاب الرشيد فولَّاه سنة 176هـ مصر وإفريقية والجزيرة الفراتية إلى جانب أعماله في بغداد. وأما موسى بن يحيى فقد اشتهر بالشجاعة والبأس وحسن الرأي، وأما محمد بن يحيى فقد عرف بعلو الهمة وسماحة الخلق[1].

وزارة يحيى بن خالد البرمكي

لما أفضت الخلافة إلى هـارون الرشيد استوزر يحيى بن خالد، وقال له: "يا أبتِ أنت أجلستني في هـذا المجلس ببركتك ويُمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر"[2]. وفوَّض الرشيد أمور دولته إليه، وقال له: "قد قلّدتك أمر الرعيّة وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، واعزل

(1) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي – السياسي والحضاري، ص63 – 64، بتصرف.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 280. الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص134.

من رأيت وأمض الأمور على ما ترى"، ودفع إليه خاتمه[1]. وقد قام يحيى بن خالد بأمر الوزارة على أتمِّ ما يكون، فكان وزيرًا حازمًا حكيمًا، وقد شهدت الدولة في عهده استقرارًا واتساعًا ونفوذًا وعظمة لم تشهدها الدولة العباسية من قبل.

لقد حمل البرامكة أعباء الخلافة عن الرشيد أول عهده، فكان يرجع إليهم في كل أمر، ويحملون التبعات في كل شأن، واتسع سلطانهم وعلا شأنهم، وقصدهم جميع الشعراء بالمدائح، وكانوا من حسن السياسة ما حببهم إلى الرعية، وكل من هـذه الأسرة اتخذ له صنائع بما غمرهم من أموال، .. ووضعوا أيديهم على مال الدولة كله، حتى كان من شأنهم إذا أرادوا أن يتصرفوا في شيء منه وجدوه تحت أيديهم، وإذا أراد الرشيد وقصره أن يتصرف رجع في ذلك إليهم[2].

لقد بلغ نفوذ البرامكة في عهد الرشيد مبلغًا عظيمًا، فهم من جهة قد خدموا الدولة، إذ كان محمد بن خالد حاجب الرشيد، ويحيى بن خالد مربيه ووزيره، وجعفر بن يحيى والي مصر، والفضل بن يحيى والي خراسان، وفي الوقت نفسه قادوا الجيوش وأخضعوا الثورات وأخمدوا الفتن، .. لقد كانوا جلساء الخليفة وندمائه، يدخلون عليه في كل وقت دون إذن، وإن كان يعزل أحدهم ويستبدل بآخر غير أن مركزهم لم يكن يتغير[3].

وهكذا غدا البرامكة يمثلون دولة داخل دولة، حتى إن ابن طباطبا العلوي نعتهم في كتابه الفخري باسم (الدولة البرمكية)، وقال واصفًا أحوالها: "اعلم أن هـذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجًا على مفرق العصر ضربت بمكارمها الأمثال، ومنحتها أوفر إسعادها، فكان يحيى وبنوه كالنّجوم زاهرة والبحور زاخرة، والسّيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة ومراتب ذوي

(1) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 504.

(2) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص121.

(3) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي – الدولة العباسية، 1/ 160 – 161.

الحرمات عندهم عالية والدنيا في أيامهم عامرة وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهف، ومعتصم الطّريد، ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغاد"[1].

كان حال البرامكة في خدمة الدولة العباسية منذ مهدها، فما الذي تغيَّر؟!، وما الذي دفع الرشيد إلى نكبتهم، وهو أحب الناس إلى قلوبهم وأنفسهم؟!

نكبة البرامكة

الحقيقة أن المتأمل لكتابات المؤرخين القدامى حول نكبة البرامكة في عهد الرشيد لا يجد أسبابًا واضحة وجلية، وإنما اجتهادات مختلفة لبيان العلل والنتائج، ولن يستطيع أحد – فيما أرى – أن يقدم أسبابًا قطعية حول نكبة البرامكة؛ لأنها ببساطة لو كانت قطعية واضحة لاسترحنا كثيرًا، بل إن هـارون الرشيد نفسه صارحته أخته عليَّة بنت المهدي قائلة: "مَا رَأَيْتُ لَكَ سُرُورًا تَامًّا مُنْذُ قَتَلْتَ جَعْفَرًا، فَلِأَيِّ شَيْءٍ قَتَلْتَهُ؟"، قال: "لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لَمَزَّقْتُهُ"[2].

وقد رثتهم الشعراء بمرات كثيرة وذكرت أيامهم، فممَّا استحسن من مراثيهم قول أشجع السلمي من أبيات:

كأن أيامهم من حسن بهجتها مواسم الحج والأعياد والجمع[3]

أسباب نكبة البرامكة

وهذه محاولة اجتهادية لبيان أهم الأسباب التي تناولها المؤرخون لبيان نكبة البرامكة، وتغيُّر الرشيد عليهم، ورأينا فيها:

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 197.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 132. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 789. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 22/ 101.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 315. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 336.

السبب الأول: استبدادهم بالدولة وتحكمهم في شئونها

وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته، فقد رأى أن الرشيد نكب بالبرامكة بعد: "ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم (جذبهم) أموال الجباية، حتّى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه. فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمّروا مراتب الدولة وخططها بالرّؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمّن سواهم، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. ويقال: إنّه كان بدار الرشيد من وُلْد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسًا، من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب، .. وعظمت الدّالّة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرّقاب وقُصِرَت عليهم الآمال، وتخطّت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، .. واستولوا على القرى والضّياع من الضّواحي والأمصار في سائر الممالك، حتّى أسفّوا البطانة وأحقدوا الخاصّة وأغَصُّوا أهل الولاية"[1].

وكلام ابن خلدون هنا تحليل صحيح وتعليل معقول ومنهج في الموازنة بين الرشيد والبرامكة رجيح. وقد أيَّده ما يحكيه الجهشياري أن البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله، وقد طلب الرشيد من جعفر ذات مرة عشرة آلاف درهم، فاعتذر له، وأعطاه خمسة فقط[2].

ويقول المسعودي: "ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة، فاحتازوا الأموال دونه، حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه"[3].

وإن كان استبداد البرامكة بأمور الدولة والخلافة دون الرشيد واضحًا لكل

(1) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 303.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 200.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 304.

ناظر، فإن الرشيد هـو من أطلق العنان ليحيى بن خالد وولده، يفعلون ما يشاءون، وقد ساعد البرامكة على استبدادهم عوامل عدة، منها: كثرة الأموال واستقرار الخلافة وتمكنهم من مفاصل الدولة ووظائفها، هـذا فضلًا عن الضوء الأخضر الذي أعطاه الرشيد لوزيره الأول يحيى بن خالد عند توليته الوزارة، عندما قال له: "قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت وأمض الأمور على ما ترى".

السبب الثاني: تعاطفهم مع العلويين

وهذا من أهم الأسباب وأظهرها، فقد روى الطبري في تاريخه في حوادث سنة 176هـ، عن أبي محمد اليزيدي - وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم - قَالَ: "من قَالَ إن الرشيد قتل جعفر بْن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا جعفر بيحيى بن عبد الله ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه، إلى أن قال يحيى: "اتق الله في أمري، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدًا محمدًا ﷺ، فو الله ما أحدثت حدثًا، ولا أويت محدثًا. فرقَّ عليه"، وقال له: "اذهب حيث شئت من بلاد الله"، قال: "وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل، فأُرَد إليك أو إلى غيرك!"، فوجَّه معه من أدَّاه إلى مأمنه.

وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، من عيْن كانت له عليه من خاص خدمه، فعلا الأمر، فوجده حقًا، وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره، وقال: "وما أنت وهذا لا أم لك! فلعل ذلك عن أمري"، فانكسر الفضل، وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما إن قال: "ما فعل يحيى بن عبد الله؟"، قال جعفر: "بحاله يا أمير المؤمنين، في الحبس الضيق والأكبال". قال: "بحياتي!"، فاحجم جعفر - وكان من أدق الخلق ذهنًا، وأصحهم فكرًا - وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال:

"لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده". قال الرشيد: "نِعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي". فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال الرشيد: "قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك!"، فكان من أمره ما كان[1].

وإن كان الرشيد يحتمل لجعفر كثيرًا من الإدلال – لا يحتمل له هـذا؛ لأنه متعلق بملكه، ومن الغريب ما ورد في هـذه الحادثة، من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له من خاصة خدمه، وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوسًا يعلم أخباره ويلقي بها إليه.

كانت هـذه الحادثة سببًا للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء، وهي الإخلاص لملوكهم، وذلك طعن منفذ، وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك، وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته، وهذه تهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي، وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة[2].

والحقيقة أن إيعاز الفضل بن الربيع للرشيد باتهام جعفر بموالاة الشيعة، لم يكن السبب المباشر لقتل جعفر، وإنما أوغر قلب الرشيد كذلك، تصرف جعفر في أمر رجل خرج على الدولة ومثَّل خطرًا عليها وكلَّف الدولة آلاف الدنانير من أموال المسلمين، ثم يطلق صراحه دون إذن منه. وهو أمر لم يحتمله الرشيد، فكان أن تغيَّر على البرامكة جميعًا ونكب بهم، بعد أن بان له استفحال أمرهم.

السبب الثالث: نسبه بعض المؤرخين إلى الملل والغيرة

فقد سُئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد، فقال: "والله ما كان منهم ما يوجب بعض ما عمل الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم وكل

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 289.

(2) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة العباسية، ص 120.

طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هـم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلًا وأمنًا وسعة أموال وفتوح، وأيام عثمان رضي الله عنه حتى قتلوهما، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم، وكثرة حمد الناس لهم، ورميهم بآمالهم دونه، والملوك تتنافس بأقل من هـذا، فتعنت عليهم، وتجنى وطلب مساويهم، ووقع منهم بعض الإدلال، خاصة جعفر والفضل دون يحيى، فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور، ولاذ من أعدائهم بالرشيد، كالفضل بن الربيع وغيره، فستروا المحاسن وأظهروا القبائح، حتى كان ما كان"[1].

ونقل الجهشياري هـذا السبب أيضًا، عن عبيد الله بن يحيى بن خاقان قال: "سألت مسرور الخادم[2] في أيام المتوكل، وكان قد عُمِّر إليها، ومات فيها، عن سبب قتل الرشيد لجعفر، وإيقاعه بالبرامكة، فقال: "كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة، وأمر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة؟" فقلت له: "ما أردت غيره"، فقال:" لا والله، ما لشيء من هـذا أصل، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم"[3]. وهذا السبب وإن كان واردًا إلا أنه ليس بكافٍ وليس بمقنع بنكبة جماعية لأسرة عريقة الجاه والسلطان كأسرة البرامكة.

السبب الرابع: أمارة تدلُّ على انحراف دولتهم

حدث بختيشوع طبيب الرشيد، قال: "دخلت يوما على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من مدينة السلام، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، قال: فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد، فقال: جزى الله يحيى خيرًا! تصدّى للأمور وأراحني من

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 335. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 788. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، 1/ 317.

(2) مسرور الخادم، أبو هاشم، خدم المهدي والرشيد، كان أثيرًا عند الرشيد موضع سرّه ومنفذ أمره. واستمرت حرمته أيام الرشيد والمعتصم والمتوكل، ومات في أيامه.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 204.

الكدّ، ووفّر أوقاتي على اللّذة، ثم دخلت إليه بعد أوقات وقد شرع يتغيّر عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة، فقال: استبدّ يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلّا اسمها؟، قال: فعلمت أنّه سينكبهم، ثمّ نكبهم عقيب ذلك"[1].

وهذه الوقعة التي ذكرها بختيشوع دليل على أن الرشيد أحس بالخطر على دولته من البرامكة، فليس الأمر يعدو كما في ظاهره إحسان من البرامكة على الشعب، وإنما نظر إليه الرشيد أنه استمالة من البرامكة لتأييد الشعب لهم، وهو ما يعني سحب البساط من تحت يد العباسيين شيئًا فشيئًا.

السبب الخامس: دخول يحيى بن خالد على الرشيد دون إذنه

وهو أول الأسباب التي ذكرها الطبري في أسباب وقوع نكبة البرامكة، ذكر بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنَّه قال: "إني لقاعد يوما في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلمّا دخل فصار بالقرب من الرشيد وسلّم، ردّ عليه ردًّا ضعيفًا. فعلم يحيى أنّ أمرهم قد تغيّر، ثمّ أقبل علىَّ الرشيد، فقال: "يا جبريل، أيدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا أذنك؟"، فقلت: "لا والله، ولا يطمع في ذلك"، قال: "فما بالنا، يدخل إلينا بلا إذن"، فقام يحيى، فقال: "يا أمير المؤمنين، قدّمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هـو إلّا شيء كان خصّني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتّى إني كنت لأدخل وهو في فراشه مجرّدًا حينًا، وحينًا في بعض إزاره، وما علمت أنّ أمير المؤمنين كره ما كان يحبّ، وإذ قد علمت فإنّي أكون في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة، إن أمرني سيّدي بذلك"، فاستحيى، وكان من أرّق الخلفاء وجهًا وعيناه في الأرض ما يرفع طرفه إليه، ثم قال: "ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون"، قال جبريل: "فظننت أنّه

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 207.

لم يسنح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى"[1]. وهذا التغير من الرشيد على البرامكة دليل أن نكبة البرامكة لم تكن حدثًا مفاجئًا، بل كانت دليل تراكمات عدة أدت لنكبتهم، وهو أمر فطن إليه يحيى بن خالد مبكرًا.

السبب السادس: دعاء يحيى بن خالد على نفسه وولده

وكان من الأسباب أيضًا ما لا تعده العامة سببًا، وهو أقوى الأسباب، ما سُمع من يحيى بن خالد وهو يقول وقد تعلق بأستار الكعبة في حجته: "اللهم إن كان رضاك أن تسلبني نعمك عندي فاسلبني! اللهم إن كان رضاك أن تسلبني مالي وأهلي وولدي فاسلبني، إلا الفضل". ثم ولَّى، فلما كان عند باب المسجد رجع، فقال مثل ذلك، وجعل يقول: "اللهم إنه سمح بمثلي أن يستثني عليك، اللهم والفضل".

وسُمع أيضا يقول في ذلك المقام: "اللهم إن ذنوبي جمة عظيمة لا يحصيها غيرك، اللهم إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي بذلك في الدنيا، وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري وولدي ومالي، حتى يبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة". فاستجيب له، فلما انصرفوا من الحج ونزلوا الأنبار، ونزل الرشيد العُمر نكبهم[2].

السبب السابع: الوشاة والحساد

فأعداء البرامكة كُثُر، ما زالوا يسعون بهم إلى الرشيد ويذكرون استبدادهم بالملك، واحتجانهم للأموال، حتى أوغروا صدره فأوقع بهم[3]. ومن هـؤلاء الفضل بن الربيع، وكان الفضل شديد الكبر شديد الغيرة من البرامكة، لا يبلغ مبلغهم في علم ولا نبل ولا فضل، فحسدهم وتمنى زوال نعمتهم، فكان يومًا يدس إلى الرشيد أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة، ويومًا يدس أن البرامكة

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 287 – 288. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 553.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 349 – 350.

(3) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 208.

وثنيون ملاحدة، ويومًا يحذره من البرامكة بأنهم يؤيدون العلويين سرًا، ويودون نقل الخلافة إليهم، ويومًا يوعز إلى مغني أن يغني الرشيد بهذين البيتين:

ليت هـندًا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا ممـا تجـد

واستبدت مرة واحـدة إنما العاجز من لا يستبد

وهكذا من أساليبه الخفية الشريرة[1].

بل إن الجهشياري نقل أن الفضل بن الربيع كان من أسباب زوال دولة البرامكة، قال عبد الله بن سليمان: "إذا أراد الله عز وجل هـلاك قوم وزوال نعمتهم، جعل لذاك أسبابًا، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع، وقصدِهم محمد بن جميل"[2].

ومن الوشاة كذلك علي بن عيسى بن ماهان، فقد روي أنه سعى بموسى بن يحيى بن خالد، واتهمه في أمر خراسان، وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير إليهم، ويخرجهم عن الطاعة، فحبسه ثم أطلقه[3].

السبب الثامن: وفاة الخيزران أم الرشيد

فقد ذكر بعض المؤرخين أن الخيزران كانت الحليف الأقوى للبرامكة، وكانت دائمًا ما تستشير يحيى بن خالد، فكان لها دور كبير في توطيد ملكهم وتثبيت دعائم حكمهم، فلما ماتت 173هـ شعر الرشيد أنه لا يملك من أمره شيئًا، فتغلب عليهم، وبدأ يقلص من صلاحيات جعفر والفضل[4].

السبب التاسع: قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر بن يحيى

وهي من الحكايات المكذوبة والمختلقة لتشويه التاريخ الإسلامي وتشويه السيرة النضرة لهارون الرشيد رحمه الله، وهي للأسف من القصص المشهورة

(1) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص 121 – 123.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 203.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 350.

(4) الشيخ زهير الكبي: موسوعة خلفاء المسلمين، 2/ 26.

على الألسنة والكتب، فقد تناقلها المؤرخون وكأنها حدثت فعلًا، أوردها الطبري وابن الأثير وابن كثير والمسعودي ومسكويه وابن شاكر الكتبي وابن العبري في مختصر تاريخ الدول، وغيرهم. وهو ما لم يقم عليه دليل بيِّن، كما سنرى.

ذكر الطبري في تاريخه، قال: "حدثني أحمد بن زهير – أحسبه عن عمه زاهر بن حرب – أن سبب هلاك جعفر والبرامكة، أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: "أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي"، وتقدم إليه ألا يمسها، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوجها منه على ذلك، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما، فيثملان من الشراب، وهما شابان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلامًا، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، فلم يزل الأمر مستورًا عن هارون، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريها شر، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه، ومع من هو من جواريها، وما معه من الحلي الذي كانت زينته به أمه، فلما حج هارون هذه الحجة، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي به من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه، فلما أحضروا سأل اللواتي معهن الصبي، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عباسة، فأراد – فيما زعم – قتل الصبي، ثم تحوب من ذلك.

وكان جعفر يتخذ للرشيد طعامًا كلما حج بعسفان فيقريه إذا انصرف شاخصًا من مكة إلى العراق، فلما كان في هذا العام، اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره فاعتل عليه الرشيد، ولم يحضر طعامه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه"[1].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 294.

والواضح في هـذه الرواية الكذب الصريح والافتراء الشنيع في عرض الرشيد وأخته، وليس الافتراء هـنا في عرض الرشيد وحده بل في عرض العباسيين جميعًا. وقد أنكرها وفنَّد هـذه الرواية ابن خلدون في مقدمته الرائعة، فقال: "وهيهات ذلك من منصب العبَّاسة في دينها وأبويها وجلالها، وأنّها بنت عبد الله بن عبّاس ليس بينها وبينه إلّا أربعة رجالهـم أشراف الدّين وعظماء الملّة من بعده. والعبَّاسة بنت محمد المهدي ابن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمّد السّجّاد ابن عليّ أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ، ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملّة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبيّة وسذاجة الدّين البعيدة عن عوائد التّرف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصّون والعفاف إذا ذهب عنها ؟! أو أين توجد الطّهارة والذّكاء إذا فقدا من بيتها ؟! أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنّس شرفها العربيّ بمولى من موالي العجم بملكة جدّه من الفرس أو بولاء جدّها من عمومة الرّسول وأشراف قريش ؟! وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقّتهم إلى منازل الأشراف، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد هـمته وعظم آبائه، ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولجَّ في تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟!!"[1].

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على هـذه الرواية، يقول: " فأنت تقرأ هـنا خبرًا مهينًا حقًا للمسلمين. وأنت إذا تأملته وجدته لا يستقيم، فما الذي يجعل الرشيد يتمسك بأن يحضر جعفر مجلسه مع أخته العباسة؟ وإذا كان لا يريد أن تكون هـناك علاقة بين الاثنين فلماذا عقد بينهما الزواج أصلًا؟ ثم كيف يتركهما معًا وينصرف

(1) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 301 – 302.

فيعرضهما إلي مظنة الجماع، وهو أمر معقول بين رجل وامرأة عقد له عليها فعلًا؟ الحقيقة هـي أن الخير غير أصيل بل غير ممكن. وإذا كان الرشيد قد غضب علي جعفر وآله فلابد أن تكون أسباب أخرى أهم من تلك العلاقة غير المعقولة بين جعفر والعبَّاسة»[1].

خلاصة القول

أننا لا نستطيع القطع أن نكبة البرامكة كان لسبب بعينه من الأسباب، وربما كان ذلك نتيجة لأسباب مجتمعة، منها ما نعرفه ومنها ما لم يتوفر لنا معرفته، وعليه فإن نكبة الرشيد للبرامكة بسبب سوء استعمال السلطة، أطلقوا عدو الرشيد دون علمه، أنفقوا الأموال على قصورهم وخدمهم وبني ملتهم وتطاولوا في بنيانهم، وحموا الشعوبية وكل ما هـو فارسي، كل ذلك على حساب الرشيد، فكأنهم هـم الخلفاء، وكان الرشيد كثيرًا ما ينشد بعد نكبة البرامكة:

إن استهانتها إذا وقعَت لَبِقدْرِ ما تعلـو بها رُتَبُـهْ

وإذا بَدَتْ للنمل أجنحة حتى يطير فقد دَنا عَطَبُهْ[2]

وكل ما ذكرنا من أسباب كفيلة بأن تدفع هـارون الرشيد إلى هـذه النكبة الجماعية بأسرة البرامكة، حيث أمر بقتل جعفر بن يحيى، وحبس يحيى وبقية أولاده، ومات يحيى والفضل في السجن، وظل به الباقون حتى عفا عنهم الأمين[3].

ليلة النكبة

لما انصرف الرشيد عن الحج في سنة 186هـ أمر مسرور الخادم بقتل جعفر بن يحيى، فقُتل جعفر ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة 187هـ بأرض الأنبار، وهو

(1) حسين مؤنس: تنقية أصول التاريخ الإسلامي، ص 125.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 315 – 316. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص 246.

(3) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام – الدولة العباسية، ص 380.

ابن سبع وثلاثين سنة، ثم أمر بنصب رأسه على الجسر، وتقطيع بدنه، وصلب كل قطعة على جسر، فلم يزل كذلك حتى مر عليه الرشيد حين خروجه إلى خراسان، فقال: "ينبغي أن يحرق هـذا". فأحرق.

وفي ليلة مقتل جعفر وجه الرشيد من أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه ومن كان منهم بسبيل، فلم يفلت منهم أحد كان حاضرًا، وحوَّل الفضل بن يحيى ليلا فحبس في ناحية من منازل الرشيد، وحبس يحيى بن خالد في منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها، .. وفرق الكتب من ليلته في جميع الغلمان في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. وأمر الرشيد بالنداء في بغداد أن لا أمان للبرامكة ولا لمن أمنهم أو آواهم، إلا محمد بن خالد وولده وأهله وحشمه، فإنه استثناهم لما ظهر من نصيحة محمد له، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة، وشحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها.

ولما وصل الخبر إلى يحيى بن خالد بقتل ولده جعفر، قال: "قتل الله ابنه". ولما قيل له: قد خربت دارك، قال: "خرب الله دُوْرَهُ"، ويقال: إنه لمَّا نظر إلى داره وقد هُـتكت ستورها، واستبيحت قصورها، وانتهب ما فيها، قال: "هكذا تقوم الساعة".

وقد كتب بعض أصحابه يعزيه فيما وقع، فكتب جواب التعزية: "أنا بقضاء الله راضٍ، وبالخيار عالِمٌ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم، وما الله بظلام للعبيد، وما يغفر الله أكثر. ولله الحمد". وقيل إنه لما قتل جعفر بن يحيى وصلب بباب الجسر رأسه، وفي الجانب الغربي جسده، وقفت امرأة على حمار فَارِهٍ، فنظرت إلى رأسه فقالت بلسان فصيح: "وَاللَّهِ لَئِنْ صِرْتَ الْيَوْمَ آيَةً، فَلَقَدْ كُنْتَ فِي الْمَكَارِمِ غَايَةً"[1].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 294 – 296. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 133 – 137. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 643 – 645.

وفي السجن كتب يحيى بن خالد إلى الرشيد: "قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت بالأثر، والله الحكم العدل، وستقدم فتعلم". فوقَّع فيه الرشيد: "الحكم الذي رضيته في الآخرة لك،هـو أعدى الخصم في الدنيا عليك، وهو من لا يردُّ حكمه، ولا يصرف قضاؤه"[1].

وانقضت أيام البرامكة

أصبح الرشيد وحيدًا يواجه أمور مملكته بمفرده بعد أن فقد أخلص معاونيه وأكفؤهم - لولا ما كان من نفوسهم، والحقيقة أن الرشيد وجد جهدًا كبيرًا في تحمل مسئوليات الخلافة وأمور الأمة بعد البرامكة، فقد كانوا يكفونه أتعابها ومشقاتها، بل إن الرشيد نفسه وجد - بعدهم - صعوبة في اختيار ولاته وكتَّابه، حتى إنه قال بعد أن نكبهم: "أريد أن استعمل قومًا لم يعملوا معهم؟"، فقيل له: "لا تجد أحدًا لم يكن يخدمهم"[2]. فاضطر الرشيد أن يلي شئون الدولة بنفسه، وأن يحارب الثائرين عليه، حتى أنه توفي وهو ذاهب لإخماد فتنة رافع بن الليث بن نصر بن سيار.

وكانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم من استخلاف هـارون الرشيد إلى أن قُتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا[3].

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 297 - 298.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 204.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 313.

obeikandi.com

ثانيًا: طبقات المجتمع في عهد الرشيد

انقسم المجتمع العباسي إلى عدة طبقات، يأتي في أعلاها طبقة الحكام والأمراء والوزراء، وقد تلت هـذه الطبقة البرجوازية من التجارة وكبار رجال الدولة والعلماء والقضاة، وأما العامة والرقيق فكانوا في أسفل القائمة.

1 - الطبقة العليا: وتشمل الأسرة الحاكمة والأمراء وولاة العهد

وكان على رأس هـذه الطبقة الخليفة العباسي وأمراؤه وولاة العهد وأفراد الأسرة الحاكمة، وقد انغمس هـؤلاء في حياة الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وكانت قصور الخلفاء والأمراء مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها، وكان العباسيون ينفقون عن سعة في سبيل رفاهيتهم، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، وحفلت قصور الخلفاء والأمراء بالمغنيين والموسيقيين، كما كانت مجالس الخلفاء من آيات الروعة والجمال. وقد فاق هـارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى وإجزاله العطاء للمغنيين والموسيقيين، وقد جعل المغنيين مراتب وطبقات، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل بن صبيح، وزلزل منصور الضارب في الطبقة الأولى وكان زلزل يضرب، ويغني هـذان عليه، وقد نبغ في عهد الرشيد مغنيُّون عظام، مثل: إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، ومسكين المدني المعروف بأبي صدقة[1].

هكذا كان حال هـذه الطبقة التي أحاطت نفسها بأنواع الأبهة والفخار والترف على نحو لم ير له مثيل في التاريخ الإسلامي من قبل.

(1) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص 36. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 329 - 330. بتصرف.

2 - الطبقة الوسطى: وتشمل كبار رجال الدولة والتجار والعلماء والقضاة

وقد كان حال هـذه الطبقة لا يقل أبهة عن طبقة الخلفاء والأمراء، فقد اهتم كبار القواد بقصورهم وديارهم، حتى صارت مضرب المثل في بهائها ورونقها، وتشمل هـذه الطبقة كذلك كبار التجار الذين جمعوا ثروات كبيرة؛ بسبب ازدهار الدولة وانتعاش عمرانها، وقد ارتبط عمل هـؤلاء التجار بقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وقواد الدولة ارتباطًا مباشرًا، فكان لهم من ذلك حظًا واسعًا في جمع المال والترف الكبيرين.

ويأتي في مقدمة هـذه الطبقة العلماء والقضاة، الذين تبوءوا مكانة مرموقة في المجتمع العباسي، لما كان لهم من دور أساسي في الحياة اليومية لسكان بغداد، حتى كان يقصدهم الأمراء والوزراء وعامة الناس في جميع ظروفهم، ابتغاء عونهم ومرضاتهم، لفرط ما كانوا يحظون به من تقدير وتعظيم لدى الجميع. وقد عرف الرشيد هـذا الحق فزاد عليه، حتى أنه لم يجتمع له من الفقهاء والقضاة والعلماء والقراء والكتاب ما اجتمع للرشيد رحمه الله. ولهذا الإكرام فقد عاش العلماء والقضاة في رغد من العيش، وكان لهم زيهم الخاص ومظهرهم الخاص.

ويمكن أن نضيف إلى هـذه الطبقة المهندسين والأطباء والجراحين والصيادلة، وقد اشتهر من هـذه الطبقة أطباء كبار منهم: آل بختيشوع، الذين حظوا بقدر من الثقة والمنزلة العالية في قصور المنصور والمهدي والهادي والرشيد[1].

3 - الطبقة السفلى: وهي طبقة العامة والغوغاء

وهم عامة الشعب الذين تتكون منهم مجتمعات الدولة العباسية، وذلك على اختلاف جنسياتهم وألوانهم وعقائدهم، فمنهم العرب والفرس والأتراك وغيرهم،

(1) انظر تفضيل ذلك في: المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 241 - 242. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي - السياسي والحضاري، ص 254. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 312. بتصرف.

وكان طعامهم يتميز بالبساطة، كما كانت بيوتهم دون أسوار تحيط بها، وكانت نوافذهم تطل على الشوارع مباشرة. وقد كان من هـؤلاء صغار التجار والصناع والزرَّاع والباعة وأرباب الحرف المختلفة. وقد عاش هـؤلاء عيشة متوسطة في المدن، لا هـم بالأغنياء الموسرين ولا بالفقراء المعدومين.

وهناك فئة - ضمن هـذه الطبقة - أطلق عليهم المؤرخون تسميات مختلفة مثل: الغوغاء والسفلة والسقاط والأوباش، وقد اكتظت بهم المدن في العصر العباسي وخاصة بغداد، ونظرًا لكثرة عددهم فقد كانوا مصدر فساد واضطراب في المجتمع، مما حدا بالحكومة أن تملقهم أحيانًا وتحسن إليهم اتقاء شرهم[1].

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص 358. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي - السياسي والحضاري، ص 255 - 256. بتصرف.

obeikandl.com

ثالثًا: العادات والتقاليد

تأثر العباسيون بالتقاليد الفارسية في جميع مناحي الحياة في المأكل والمشرب والملبس وتقاليد الاحتفال بالأعياد، ومن مظاهر ذلك:

1 - المأكل

كان الطعام والشراب صورة من هـذا المستوى الاجتماعي الرفيع خلال العصر العباسي، فقد شهدت زراعة الفاكهة والخضروات انتشارًا واسعًا في عهد الدولة العباسية لاتساع ممتلكاتها مشرق الأرض ومغربها، مما هـيأ لها استقبال ما اختلف من الزرع لتنوع تربة الأرض هـنا وهناك.

من هـنا فقد اعتنى العباسيون بتنويع الطعام، حتى إن مائدة الرشيد كانت تحفل بألوان الطعام، فقيل إن الطهاة كانوا يطهون ثلاثين لونًا في اليوم، وأنه كان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم، ولما تزوج الرشيد من زبيدة بنت جعفر أقيمت في قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم.

وقد كان الأمراء يعبُّون من السرف، وقد بلغ من نفقتهم في الطهي وإسرافهم في الإنفاق عليه، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك؛ لتقديم ألسنته على المائدة، من ذلك إسراف إبراهيم بن المهدي في تقديم الطعام عندما زاره الرشيد في الرقة، ومعاتبة الرشيد له في إسرافه، يقول المسعودي عن إبراهيم بن المهدي قال: "استزرت الرشيد بالرقة، فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريص مثل قريص السمك، فاستصغر القطع، وقال: لم صَغر طباخك تقطيع السمك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، هـذه ألسنة السمك، قال: فيشبه أن يكون في هـذا الجام مائة لسان، فقال مراقب خادمه:

يا أمير المؤمنين، فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره إنه قام بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئًا دون أن يُحْضِره ألف درهم، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به. وقال: أرجو أن يكون كفارة لسَرَفِكَ في إنفاقك على جام سمك ألف درهم"[1].

وقد كان أهل بغداد يتفننون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها، من صيد وفاكهة وخضروات، حتى كانوا يزينون هـذه الأطعمة أحيانًا بما يعادلها في الوزن من الفضة، ما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحبوب والجبن وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند[2].

2 - الملبس

يعد الثياب والملبس من أظهر العادات والتقاليد التي تبيِّن مدى تأثر المجتمع العباسي بغيره من المجتمعات، وقد قاد ترف طبقات المجتمع وإسرافهم في الطعام إلى التأنق في الملبس والزينة في حياتهم الخاصة والعامة. لقد كان تنوع الثياب التي تلبس ببغداد يضفي على شوارعها روعة في الألوان وجاذبية في المظهر، ذلك أن كل مجموعة من المجموعات العرقية ظلت محتفظة بلباسها الأصلي: العرب، والبربر، والفرس، والترك، والروم، والصقالبة، والرقيق المجلوب من بلدان ما وراء البحر المتوسط[3].

كما أن تنوع وتعدد الأزياء والملابس من أظهر ملامح تأثر المجتمع العباسي بالتقاليد الفارسية؛ حيث كان لكل طبقة وفئة في المجتمع زي خاص ولون خاص، وهذا من عادة الفرس، فقد ذكر الجهشياري: "كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة، ممن في خدمتهم، لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة، فإذا

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 300.
(2) حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص230. بتصرف.
(3) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 248.

وصل الرجل إلى الملك عرف بلبسته صناعته، والطبقة التي هـو فيها»[1].

فقد كان الخليفة في المواكب يرتدي قباء أسود أو بلون الإسفنج، يصل إلى الركبة وهو مفتوح عند الرقبة، ليظهر القفطان زاهيًا من تحته، وله منطقة مرصعة بالجواهر وعليه عباءة سوداء، وعلى رأسه قلنسوة طويلة، زينت بالجواهر الغالية. كما كان اللباس العادي للطبقة الراقية يشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة، أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزامًا (يسمى قمر بند)، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال[2].

وكان لكل طائفة زيها الخاص بها، فكان للشرطة زي والقضاة زي والجند زي والكتاب زي ولحرائر النساء زي ولكل مملوك زي وللإماء زي، وكذلك اختلفت العمائم فكان للفقهاء عمامة وللخلفاء عمامة وللنصارى عمامة.

وكان اللون الأسود هـو السائد واستمر رمزًا للخلافة العباسية، ويذكر الجهشياري أن الرشيد لبس بطوس يوم وفاته جبة سوداء خز بغير قميص، وعليها فنك وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنك، وعلى رأسه قلنسوة طويلة، وعمامة خز سوداء، وطيلسان أسود[3].

وقد كان لباس المرأة أكثر مبالغة في الفخامة والتألق، يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد، وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

كما أن النساء اتخذن غطاء الرأس مرصعًا بالجواهر ومحلًى بسلسلة ذهبية

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 2.

(2) حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص230.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 221. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 318 – 319.

مطعمة من الأحجار الكريمة، ويقال إن هـذا الزي ابتكرته علية بنت المهدي أخت الرشيد. وقد كان لزبيدة زوجة الرشيد أثر كبير في تطور الزي وإدخال تغييرات على ملابس السيدات في عصرها، فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر، وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها، حتى أنها اتخذت ثوبًا من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار، وقلدتها نساء الطبقة الممتازة جميعهن.

وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصَّعَة بالجوهر وشمع العنبر، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر.

أما نساء الطبقة الوسطى فكنَّ يتخذْنَ في رؤوسهن حلية مسطحة من الذهب ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن[1].

3 - الأعياد والمناسبات

زاد النفوذ الفارسي في المجتمع العباسي حتى شمل شكل الاحتفال بالأعياد والمناسبات والمواسم المختلفة الدينية منها وغير الدينية. وبلغ الذروة في ذلك في عهد الرشيد، خاصة أن البرامكة كانوا فرسًا، فكان ذلك تسهيلًا لانتشار العادات والتقاليد الفارسية.

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 252 - 253. جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص 88. حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص230 - 231. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 349 - 350. بتصرف.

أ - الاحتفال بالعيدين

فقد احتفل الخلفاء العباسيون بالعيدين (الفطر والأضحى) احتفالًا دينيًا، حيث يتوافد المسلمون إلى المساجد لحضور صلاة العيد، ويحضر الخلفاء فيؤمنون الناس في الصلاة ويلقون عليهم خطبة العيد، كما كان الخليفة يجلس في إيوان من قصره للتسليم على الوزراء والهاشميين وكبار قواد الدولة ورجالها، ثم يستقبل الشعراء ويستمع لشيء من قصائدهم، وكانت الأنوار تسطع في شوارع المدن الإسلامية في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل. وأما الجماهير فكانت تعبر عن فرحها بقرع الطبول والنفخ في الأبواق والظهور بأفخر الثياب، ويخرج الناس للنزهة على ضفاف دجلة والفرات، ويركبون الزوارق التي تزدان بالزينات المختلفة[1].

ب - الاحتفال بأعياد الفرس

بحكم اختلاط العرب بالفرس فقد احتفل المسلمون بأعيادهم، كعيد النوروز في بداية كل ربيع من السنة، وكان الناس يتبادلون في هـذا العيد بالهدايا. وهناك عيد المهرجان وعيد الراوم وهو من أشهر أعياد الفرس ويوافق 26 من أكتوبر (تشرين الأول)، ويستمر الاحتفال بعيد المهرجان ستة أيام يسمى اليوم السادس منها بالمهرجان الكبير. أما عيد الراوم فهو من الأعياد الفارسية، ويسمى رام روز، ويقع في اليوم الحادي والعشرين من شهر مدماه الفارسي[2].

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 354 - 355. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 328 - 329.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 356 - 357. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 329 - 330. بتصرف.

جـ - الاحتفال بأعياد النصارى

وكان النصارى يحتفلون بأعيادهم في الأديرة، وكان المسلمون يشاركون النصارى أعيادهم، وكانت أعيادهم أيام بهجة لأهل بغداد، ومن أشهر الأعياد التي احتفل بها المسلمون في أعياد النصارى عيد دير الثعالب، وهذا الدير يقع في الجانب الغربي من بغداد، وكان لا يتخلف عن عيده أحد من المسلمين أو المسيحيين[1].

4 - الألعاب الرياضية

انتشرت الألعاب الرياضية والصيد أيام الرشيد انتشارًا واسعًا، وخاصة لعبة الصولجان والشطرنج واللعب بالسيف والترس وسباق الخيل. حتى قيل إن الرشيد أول خليفة لعب بالصوَّالجة (لعبة الهوكي) والكرة، ورمي النشاب في البرجاس، وأول خليفة لعب بالشطرنج من بني العباس[2]. وقد وصف المسعودي يومًا للرشيد كان فيه سباق للخيل أمامه، وجلس هـو في صدر الميدان يشرف على السباق، وكان فرس الرشيد هـي الأول في السباق وفرس المأمون هـي الثانية، وقد سر الرشيد من ذلك كثيرًا[3].

(1) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 257 - 258. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 323. بتصرف.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 252. السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 218.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 299 - 300. أحمد أمين: هارون الرشيد، ص55.

رابعًا: المدنية في المجتمع العباسي

تأثرت الحياة المدنية بالمقومات الاجتماعية التي أشرنا إليها، فقد انطلقت المدنية الجديدة انطلاقة كبيرة في المجتمع العباسي، وأول ما يلاحظ ذلك التوسع العمراني الكبير الذي طرأ على المدن الجديدة وخاصة بغداد، وما تضمنه ذلك من كثرة المساجد والحمامات والحوانيت، فقد اشتملت بغداد وحدها على ستين ألف حمام، وكان بإزاء كل حمام خمسة مساجد، فتكون مساجد بغداد ثلاثمائة ألف مسجد.

وإنه ليصيبك العجب عندما ترى وصف الخطيب البغدادي لبغداد، يقول: "كانت ببغداد ستين ألف حمام. أقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر: حمامي وقيِّم وزبَّال ووقَّاد وسقَّاء. يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل، وأنه يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجد، يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد، وتقدير ذلك أن يكون أقل ما يكون في كل مسجد خمسة أنفس، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان، يحتاج كل إنسان من هـؤلاء في ليلة العيد إلى رطل صابون، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف رطل صابون، يكون ذلك - حساب الجرة مائة وثلاثين رطلًا: ألف جرّة ومائة جرّة وخمسين جرّة وثمانية أجرار ونصفًا. يكون ذلك زيتًا - حساب الجرة ستين رطلًا - ستمائة ألف رطل وتسعة آلاف رطل وخمسمائة رطلًا وعشرة أرطال"[1].

ومن الظواهر الاجتماعية التي طرأت على الحياة في المدن في العصر العباسي ظاهرة التضخم السكاني، فقد ألغى العباسيون قيود الهجرة التي وضعت في العصر الأموي، وفُتحت الأبواب على مصراعيها للمهاجرين الباحثين عن أسباب الرزق، فكان هـذا التضخم السكاني ظاهرة شهدتها المدن الإسلامية، حتى بلغ عدد مدينة بغداد كما ذكر الخطيب البغدادي مليونًا ونصف إنسانًا.

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 1/ 439.

وكان هـذا الازدياد والتضخم نتيجة جلب الرقيق والعمال واستخدامهم في قصور الخلفاء والأمراء، واكتظت قصورهم بالآلاف من الجواري من كل جنس، وقد أدى تزايد أعداد السكان من ناحية وكثرة الإنفاق من ناحية أخرى إلى ارتفاع الأسعار في بغداد، وهذا الغلاء وإن احتمله الأغنياء وأوساط الناس، فإنه ثقل على الفقراء، وقد شكا أبو العتاهية (130هـ - 213هـ) ذلك وصوره تصويرًا دقيقًا، بقوله:

من مبلغ عني الإمام نصائحًا متواليـة أني أرى الأسعار أسعار الرعية غالية

كما أننا يمكن أن نعطي صورة للخدمات العامة التي كانت تقوم بها الدولة رعاية لهؤلاء السكان الذين تجمعوا في المدن على هـذه الصورة، فاعتنى الخلفاء بنظافة بغداد ونظافة شوارعها وطرقاتها، وكان يقف في زاوية كل شارع حارس مسئول عن حفظ النظام، كما أكثروا من المنتزهات الشعبية عند تقاطع الشوارع وحول الأحواض المائية، كما أقيمت في بغداد الجسور، فبنى الرشيد جسرين عند باب الشماسية.

أما عن وسائل الانتقال فكانت الوسيلة التي تستخدمها الطبقة الوسطى هـي كراء الحمير، وكان الحمَّارون يقفون بحميرهم في بغداد عند باب الكرخ، ويبدو أنَّ هـذه الظاهرة شاعت في المدن الكبرى كلها، فقد كان بالفسطاط موقف لاكتراء الحمير بالقرب من دار الحرم[1].

وخلاصة القول

أن معالم التطور الاجتماعي في العصر العباسي الأول كان نتيجة للحياة الاقتصادية الراقية التي عاشها الناس، والتي بلغت ذروتها في عهد الرشيد، ولم تكن تلك الظواهر قاصرة على بغداد والعراق وحدهما، إنما امتد أثرهما إلى الأمصار الإسلامية، وكان الأفراد العاديون يستطيعون أن يحيوا حياة كريمة، حتى إن الأسرة العادية زمن هـارون الرشيد كان في مكنتها أن تعيش من دخل لا يتجاوز ثلاثمائة

(1) حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص240 - 246. بتصرف.

درهمٍ في السنة، وأن الأسرة التي كان دخلها نحوًا من سبعمائة دينار في السنة كانت تعتبر أسرة ثرية، وكان أثرياء الناس وأبناؤهم سواء في الحضر أو في الريف ينفقون عن سعة في بناء الدور واقتناء الجواري أو المشاركة في المشروعات التجارية.

ويبدو أن الخلافة العباسية قد تحولت إلى حياة الترف والنعيم التي يصورها أدب ذلك العصر سواء كان أدبًا رسميًا أم شعبيًا، دفعة واحدة، فقد بدأ الانطلاق الاجتماعي زمن المنصور ثم المهدي، ثم وصل هـذا الانطلاق إلى القمة زمن هـارون الرشيد ومن بعده المأمون والمعتصم والواثق[1].

(1) حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص226 – 228. بتصرف.

obeikandl.com